موالید اللبنانیین
في الأدب البرازيلي

لعلّ قرّاء المقتطف يسرّهم أن يعرفوا بعض النواحي من حياة النازحين إلى هذا القطر النائي وكيف يعيشون في المحيط الغريب عنهم في ميوله ومشاربه وأخلاقه وعاداته. لهذا أقوم بتحبير هذا المقال لا لرسم حياتهم التجارية — وهي شبيهة كل الشبه بحياة إخوانهم في مصر وفي كل محيط نزلوه — بل لأرسم ناحية أهم وهي امتزاج أبنائهم في أدب الشعب الذي أمسوا منه وهو الشعب البرازيلي الذي له أدبه الراقي وتفكيره المتزن.

ولكنني قبل أن أقوم بهذه المهمة الشاقة أريد القول أن الأدب البرازيلي الذي له اليوم احترامه في العالم وخصوصاً في أميركا الجنوبية كأدب اجتماعي وإنساني وهو وليد الأدب الفرنسي الرفيع. فان فولتير وروسو وريتان وهوجو وأناطول فرانس وغيرهم من أعلام الفكر العالمي يحتلون من نفوس أدباء البرازيل ذات المنزلة التي يحتلونها من أدباء فرنسا نفسها وأدباء الشرق الأدنى على الأخص. وإنّ من يقرأ مؤلفات جوليو ريبيرو وبيلاك وكاسترو ألفس وغيرهم يشعر حالاً بتأثير التفكير الفرنسي في الأدب البرازيلي. وعندي أنّ الضوء الذي كاد يخبو في فرنسا لتضعضع أبنائها وتوغلهم في الهزل ما برح مشعًّا في نفوس أكثر أدباء البرازيل وبينهم الروائي الكبير والعامر الوصّاف والكاتب العبقري النابغة.

ومن شواهد تأثير الثقافة الفرنسية في البرازيل إختيار الفكرة الفلسفية التي نشر لواءها المصلح الاجتماعي «أوغست كونت» فقد لقيت فكرته القيمة تربة صالحة في هذه البلاد. ومن أوْها البليغ أن أصحاب الرأي خلعوا الملكية مقيمين مكانها جمهورية متساهلة لها نظامها العادل وقانونها الانساني الحرّ.

هذا في الحقل الاجتماعي السياسي. أمّا في الحقل الأدبي فإننا نشعر بذلك التأثير في أشعار أولافو بيلاك أمير شعراء البرازيل. وفي روايات جوزي دي ألنكار. كبير روائي أميركا على الاطلاق.

وأنا لا أقصد في كلامي هذا أن أقول إن هذين الأديبين كانا منقطعين أو نسخة طبق الأصل لمن تقدّمهما من أعلام لغة ياصين كما هي الحال في بعض كتّاب العربيّة. كلّا ما هذا الذي أقصد اليه. بل أريد القول أنهما خضعا للمدرسة الفرنسية. فبيالك شاعر ورزي خيالي. وقصيدته « وشوشة مع النجوم » هي من أروع ما أنتجته مخيلات الشعراء على مدار العصور لما في أبياتها من رعشة لذيذة ساحرة ولما يرومّ على ألفاظها من ملتين ممكر كلتين الفراهة.

وإليك نائلٌ في ما يلي قصيدة لهذا الشاعر وهي عن الفينيقيين !!

الفينيقيون

ايها الشعب الطمّاح الجريء الفتيّ !
من تلك البقعة الجدباء.
والأرض الرملية الوعثاء.
ما بين لبنان وشاطىء سوريّة — عن أيّ طريق يفتش نظرك الحادّ الملتهب وقد أعشته الحمّى؟
صور تبرزُ من زرقة الشاطىء البحريّ متلألئة وتسبحُ بيضاء في النور. وفي المياه المنشقّة تتصادم المجاذيف على حين بغتة وتتموّجُ في الفضاء خشيش أشرعة الكتّان.
حيرام بصولجانه الأسود المتوهج بالجوهر الكريمة يحصي السفن المشدودة من خشب الأرز والمتلئة من أحمال الذهب والصفّير والعقيق ومختلف السلع.
هيّا الى عرض المحيط!
وليبارك ملخار سفرَ الذين برحوا صيدا وجبيل وصور لكي يوسعوا التجارة وينشروا العمران !!

* * *

أكتفي بما تقدّم لأعود الى مواليد المبشّرين متحدّثاً عن المنزلة السامية التي يشغلونها اليوم في الأدب البرازيلي على ما له من المقام الرفيع في الآداب العالميّة كما أظهرت في مستهلّ هذه المقالة فأشير في أول الأمر الى الشاعر « جميل المنصور حدّاد » صاحب المؤلّفات القيّمة في دولة البيان وعضو المجمع الأدبي في مدينة سان باولو

ومن مؤلفاته « سلوات سوداء » وهو ديوان شعري منحهُ المجمع العلمي البرازيلي جائزة الشعر لما يتموّج في صفحاته من بيان متين الدعائم وقوّة غريبة على قرض الشعر. ومن ابداعه في هذا الديوان الشعري الرائع تصويرهُ ثورة البشريّة في حالات بؤسها وشقائها.

ولذلك دعاهُ « سلوات سوداء » لما يبطنهُ من وحشة وكآبة لعلَّه ورثها عن أجداده اللبنانيين الذين قال عنهم لامرتين وريمان انهم احتكروا العاطفة دون باقي الشعوب فهي تفرح مع أزهار الربيع وتئنُّ مع الجداول في فصل الخريف الحزين !

ويشغل ذات المكانة التي يشغلها جبران المنصور حدَّاد ، شاعر وكاتب آخر يدعى « سلمون جورج » صاحب عدَّة مؤلفات حازت رضى كبار النقَّاد واعجابهم وهو عضو المجمع العلمي أيضاً . ومن مؤلفاته الشعريَّة ديوان « عربيَّات » نحى فيه منحى كبار الشعراء المعاصرين . ومما يمتاز به هذا الشاعر انه خطيب فصيح اللسان وناثر بليغ يحملك نثره المشرَّب بالعاطفة والمحلَّى بالشعور والاحساس على حب الحياة بما فيها من أشواك دامية فأنت تحبُّه ناقداً ساخطاً ، وتحبُّه مداعباً مازلاً . وأصدر أخيراً كتاباً نثريًّا بعنوان « جمال الموت » فجاء رائعاً ببيانٍ عذب كبيان فليكس فارس صاحب تلك الديباجة الساحرة التي لا يجهلها أحد من قرَّاء الأدب العربي .

* * *

وفي غير فارس الكاتب الروائي والنقَّاد الراسخ القدم في دولة الأدب « ماريو نعمة » الذي تشوقك منه عاطفته المضطرمة المتخبِّطة في دجورة موحشة كئيبة . ولكم قرأتُ لهذا الأديب العبقري من فصول أدبيَّة منداة بقطرات قلب الفنان المفتون بالجمال فكان يغشاني لدى قراءتها ما يشبه الضباب العابق بالعطور مُطلاً منها على آفاق متموِّجة بألوان الفجر والمغيب . وعلى الرغم من أنه لم يمسَّ من وحيه وحيه أحلام الشباب فقد زفَّ الى المجتمع البرازيلي عدداً من المؤلفات أحلاها أعلامُ الأدب وأجل منزلة من التقدير لما يطفو عليها من أمواج عاطفيَّة تشعُّ بالاحساس والتصوُّر والالهام .

وهناك كتَّابٌ وشعراء آخرون أخصُّ منهم بالذكر أميل فرحات وداود نصر وأميل كارلوس وساميل غنَّام فهم أصحاب مؤلفات هامَّة ترجم بعضها الى الفرنسية والانكليزية والاسبانية إذ صوَّروا فيها حياة العمال وما يعانونه من شظف وتضوُّر . ولعلَّ أبعدهم مدى وأرسخهم قدماً الروائي والنقَّاد المشهور — نعيم أبو سمره .

عرفتُ هذا الأديب من أعوام فعرفتُ فيه كاتباً خصباً فيَّاضاً تنساقُ له الصور والمعاني انسياقَ المياه في منحدر الوادي . وقد طبعه الشرق — عن طريق الوراثة — بطابع يُعرف به وحده اليوم

ويمثلُ في رواياته وقصصه مذهبَ الاحتفاظ بالشباب الأزلي والتمتع بالحياة في شتى

ألوانها ومظاهرها . فهو من هذه الناحية يماثل « عمر الخيّام » الشاعر الفارسي الذي دعا الى تقديس الحياة والتقلّب في أحضانها .

ومن مؤلفاته كتاب في النقد تناول فيه أعلام التفكير الانساني مترجماً مذاهبهم وطرق تفكيرهم وقد لقي هذا الكتاب استحساناً شاملاً من الأندية الفنية في البلاد . وقد أخرجت له المطابع أخيراً رواية دلت على اقتداره في العالم الروائي وسماها « رواية في استانبول » وهي من ابتكاره معتمداً بوضعها على خياله وحسب !

تدور روايته هذه على بقعة تركيا وقيامها بتلك الدعوة التجديدية بين أمم الشرق الاسلامي قاطبة . وقد زرّ بيير لوتي وكلود فاريز صديقي الشرق برصفه للبوسفور وأحياء العاصمة التركية الاسطورية . فالحدائق الفارقة في الاحلام ، ومياه الخليج المفضضة بشعاع القمر ، والقصور الماثلة في غمرة من نور الحسن والجمال . . فطلع الفجر ، ومغيب الشمس ، ومجيء الربيع ، وذهاب الصيف . . ان كلّ هذه المشاهد تجد لها رسوماً عاطفية رقيقة في روايته التي أهداها الى النفوس المتعطّشة الى الحب والسعادة من أبناء الشرق .

ويُدهشك من هذا الروائي المطبوع — عدا أسلوبه المعطّر ولغته الشيّقة — مقدرته العجيبة على ابتكار قصصه وروايته . فان أشخاصه لا تمت بصلة الى المحيط الذي يعيش فيه كما يفعل أعلام الرواية المعاصرون إذ يبنون الموضوع متأثرين بالبيئة والجوّ على ما يحوطهما من حوادث وعبر ويشملهما من ظلمات وأشعة . بل يخرج أشخاصه من صميم نفسه الفنية بالصور والألوان غالباً عليها من ظلال الحياة وأنوارها غلائل شفافة . وهذه القدرة على خلق أشخاص تتذوق في كل جارحة من جوارحها وفي كل خاصة من حواسها حلاوة الأمل ومرارة الألم لم تتفق الا لقليلين من جبابرة الفن الروائي ناهيك بخيال وثاب يحمل تحت أجنحته القدسية احساس الشاعر وعبقرية المفكر الذي يجيل من تذكاراته وأحلامه تماثيل الحياة !

ولا أنسى في هذا المجال أن أشير الى أديب لغوي مدقق يجيد اللغة العربية كأكبار علمائها وأعلامها هو الأستاذ فؤاد افرام البستاني واضع أهم كتاب في موارد اللغة البرتغالية وصلتها باللغات الشرقية وعلى الأخص بالعربية . وقد وصف كبار المستشرقين في البلاد كتاب الأستاذ فؤاد افرام بأنه فتح مبين في هذه الأبحاث الغامضة التي لا يستوعبها الا أصحاب المواهب النيرة . ومما يمتاز به هذا العالم الخبير بأصول اللغات حبه للبنان ومعرفته الواسعة لتاريخه وآدابه معرفة صحيحة اعتقد أن رجال التاريخ واللغة كاليازجي والبستاني والشدياق

والشرقوني يحسدونه عليها . وكتابه هذا حفز وزارة التعليم الى انشاء كرسي للعربية في أهم جامعة في البلاد . وقد دُعيَ في أول الأمر الى تولي هذا المنصب الرفيع فاعتذر مكرساً مواهبه للتأليف . لكنه عاد أخيراً الى إشغال منصبه في الجامعة نظراً لاحقاق المعتمد الأول وقصر باعه في هذه العلوم الدقيقة .

ويعني اليوم الأستاذ فؤاد عمر بوضع قاموس عربي جامع للأوضاع الحديثة التي عجزت المجامع العلمية في الشرق العربي وعلى الأخص في مصر عن اختيار ألفاظ موافقة لها . وعندي أن هذا العالم البصير سيوفق الى خدمة اللغة وتسهيل تلك المعميات نظراً لتضلعه من عدة لغات تضلعاً وثيق العرى . فقد درس هذه اللغات درساً علميًّا صحيحاً على أكبر العلماء في جامعة « السوربون » الفرنسية وعلى مشاهير المستشرقين في المانيا . وهو يرى أن أغلب الذين اضطلعوا بوضع القواميس العربية لم يأتوا بالشيء الجديد بل زادوا على اللغة معمية جديدة كانت بغنى عن احتمالها . وعندي ان هذا النقص في تأليف الموسوعات اللغوية عائد الى عجز المؤلفين وقصر باعهم في معرفة أصول اللغات . ولو لزم السكوت اولئك المتطفلون لكانوا أحسنوا الى نفوسهم والى هذه اللغة المسكينة التي يرسمونها ترشيماً ، ويعيثون بها خراباً .

***

وبعد . فهذه لمحة موجزة عن بعض مواليد اللبنانيين في البرازيل ممن اعتنقوا مذهب الأدب محلقين مع نسور الالهام في سمائه .

وفي اعتقادي انه لن يطول الزمن حتى تتفتق عبقريات هؤلاء الأدباء عن بيان عالمي النزعة فيتحفون الانسانية بأدب جديد كانت شواطىء البحر المتوسط مهداً له في الماضي البعيد . واذا فات تلك الجماعات المتسكعة الطامحة في رفدها الأبدي أن تنشد بعد الاحيال المتعاقبة أغاني الخلود ، فلن يفوت أبناءها وان ارتدوا ثياباً غير ثيابها أن يفتحوا على الدنيا الجميل الحق والأمل والمحبة ! !

يوسف البحيري

« من العصبة الاندلسية »

البرازيل